التراث الشعبيّ في دمشق خلال القرن العشرين..
الحمامات أنموذجاً

جوليا إسماعيل عوض* أ.د عبد المنعم الأحمد**

(الإيداع: 19 تشرين الثاني 2024، القبول: 24 شباط 2025)

الملخص:

يمثِّل التراث الحضاريّ الدمشقيّ ثروةً فنيّةً وحضاريّةً، كانت وحتى وقتٍ قريبٍ عرضةً للاندثار والهدر العشوائي، ونظراً لأهمّيتها قامتْ مؤسساتٌ متعددةٌ لحمايتها وصيانتها وتأهيلها وإظهارها بالشّكل الذي يرقى إلى قيمتها التاريخيّة والأثريّة والاجتماعيّة، وتفخرُ مدينةُ دمشقَ بعراقة تاريخها وتراثها الفكريّ والعمرانيّ، فهي حاضرةٌ أبديةٌ منذ الألف الرابعة قبل الميلاد، ومدينةٌ متنامية الأطراف رغم الظروف المتعدّدة التي مرَّتْ عليها.

وتُعدُّ دمشقُ أحد المراكز السياحيّة العالميّة، لما حباها الله من جمال طبيعي ومياه وفيرة وبساتين جمّة، إضافةً إلى موقعها في سهل خصبٍ جداً، وفي غوطةٍ تُعدُّ من أجمل جنان الدنيا، كما تميَّزت دمشقُ ببساطة أبنيتها من الخارج، وتنوّع زخرفتها وعراقتها من الداخل، ولطف ساكنيها وبراعتهم في تدبير أمورهم، فاشتهرتِ الكثير من الأبنية فيها ومنها دار عبد الله بك العظم الواقعة طرف سوق البزورية الشمالي، ودار يوسف أفندي عنبر في الحريقة، إضافةً إلى الكثير من الأبنية التي ما زالت آثارُها باقيةً حتى اليوم. وتغنّت دمشقُ بأسواقها المتوزِّعة بين أحيائها كالدقاقين والبزورية والحبالين والجقمق والعصرونية والقطن والخيل والجمال والخضروية والمناخلية والصوف وغيرها. وأجمع زوَّارها على إتقان ونظام وأناقة ونظافة حماماتها كالخياطين والقيشاني والنوفرة ونور الدين الشهيد وشركس وغيرها من الحمامات الموجودة بين الأسواق والأحياء، والتي ساعد على قيامها تدفّق المياه من كلّ صوب، فكانتِ الحمامات ظاهرةً مهمّة من ظواهر التراث الحضاريّ الدمشقيّ من خلال ما جمعته بين جدرانها من عاداتٍ وتقاليدَ اجتماعيّةٍ شعبيّةٍ عرفها المجتمع الدمشقيّ وواظب عليها لقرون عدّة.

ومع مرور الزمن أسهمتِ التغيّرات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الدمشقي بتغيّر هذا السلوك وتبدّل مفاهيمه بين الماضي والحاضر، حيثُ تناقصَ عدد الحمامات وقلَّ عدد زوارها، ولا سيما خلال النصف الثاني من القرن العشرين، واقتصر الذهاب إليها على المجموعات السياحيّة، وبعض المهتمّين ومحبي الأصالة والعادات القديمة.

الكلمات المفتاحية: حمام، دمشق، شعبية، أعراف، تقاليد، أعراس، براني، وسطاني، جواني.

*طالبة دكتوراة، قسم التاريخ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق.

** أستاذ، قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق.

Popular heritage in Damascus during the twentieth century

Hammams as a model

PhD: Julia Ismail Awad* **Prof: Abdul Moneim Al-Ahmad****

(Received: 19 November 2024 , Accepted: 24 February 2025)

Abstract:

The Damascene cultural heritage represents an artistic and cultural wealth that, until recently, was subject to extinction and random waste. Due to its importance, several institutions were established to protect, maintain, rehabilitate and display it in a manner that lives up to its historical, archaeological and social value. The city of Damascus is proud of its ancient history and intellectual and urban heritage. It has been an eternal presence since the fourth millennium BC, and a growing city despite the various circumstances it has gone through.

Damascus is one of the world's tourist centers, as God has blessed it with natural beauty, abundant water and orchards, and its location in a very fertile plain. In Ghouta, it is considered one of the best paradises in the world. Damascus is also distinguished by the simplicity of its buildings from the outside, the diversity of its decorations and antiquity from the inside, and the kindness of its residents and their skill in managing their affairs. Many of its buildings became famous, including the house of Abdullah Bey al-Azm at the northern end of the Buzuriyah market, and the house of Youssef Effendi Anbar in al-Hariqa, in addition to many buildings whose traces still remain to this day.

Damascus was famous for its markets distributed among its neighborhoods, such as Al-Daqaqin, Al-Buzuriyah, Al-Habbalin, Al-Jaqmaq, Al-Asrouniyyah, Al-Qoton, Al-Khail, Al-Jamal, Al-Khudroiyah, Al-Manakhiliyah, Al-Soof, and others. Its visitors agreed on the mastery, order, elegance, and cleanliness of its baths, such as Al-Khayyatin, Al-Qishani, Al-Nawfarah, Nour Al-Din Al-Shaheed, Sharkas, and other baths located between the markets and neighborhoods, which were helped by the flow of water from every direction. The baths were an important phenomenon of the Damascene cultural heritage through what they gathered within their walls of popular social customs and traditions that Damascene society knew and maintained for several centuries. With the passage of time, the economic and social changes in Damascene society contributed to changing this behavior and changing its concepts between the past and the present, as the number of baths decreased and the number of their visitors decreased, especially during the second half of the twentieth century, and visits to them were limited to tourist groups and some interested and lovers of authenticity and old customs.

Keywords: Bath, Damascus, popular, customs, traditions, weddings, outside, middle, inside

* Postgraduate student ،Damascus University Faculty of Arts and Human Science ،Modern History

** Professor ،Damascus University Faculty of Arts and Human Science, Modern History

- **مقدّمة:**

شكّل ارتيادُ الحمامات مركزَ استقطابٍ لأبناء الأحياء الدمشقيّة، فالحمّامُ لم يكن مجرَّد مكانٍ لغسل البدن أو للطهارة حسب الأحكام الدينية والإسلامية، بل كان مكاناً للقاء واجتماع أفراد الأسرة والجيران والأصدقاء والغرباء في مناسبات عدّة كالأعراس وغيرها، لذا لعب دوراً مهمّاً في الحياة الاجتماعيّة لسكان مدينة دمشق وحتى الغرباء على حدٍّ سواء، فالحمّامُ منشأةٌ عامة ارتبط عددها في دمشق بعدد سكان المدينة وتوسعها العمراني.

ومع مطلع القرن السابع وصل عدد حمامات المدينة إلى 75 حماماً عدا حمامات القرى (ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، 2012)، ويذكر الحسن بن أحمد الأربلي المتوفّى عام 746هـ/1345م أنَّ مجموع حمّامات دمشق في القرن الثامن داخل سورها تجاوز الـ 77 حماماً، أمَّا الحمامات التي كانتْ تقع خارج السور فمجموعها 34 حمّاماً (نعيسة، يوسف،1986).

ومن حمامات دمشق النايب في محلة باب توما، وحمام الأمير علي في محلة سوق القطن بزقاق المدرسة الخيضرية، والمسك في محلة طالع الفضة، والسلسلة في الكلاسة، والناصري والركاب في الشاغور الجواني، والقيشاني بالقرب من باب البريد، وسامي بمحلة الملك الظاهر، والحاجب في محلة القنوات، وسامي بالقرب من المدرسة البدرائية، والورد في ساروجة، وأشهرها نور الدين الشهيد في سوق البزورية (العش، محمد، 2006) والبيمارستان والعدل والجوهري والسلم وست الشام والشريف وسويد والعميد (ابن شداد، محمد بن علي، ج:1، 1991).

وساعدتْ غزارةُ المياه على انتشار الحمامات، حتى أشاد كثيرٌ من زوّار دمشق بغزارة مياهها، فقال ابن جبير: "أرضها شمت كثرة الماء فاشتاقتْ إلى الظماء"، وقال شمس الدين الدمشقي: "تحت الأرض مدينةٌ أخرى من متصرفات المياه والغنى، وجدران ومسارب ومخازن وقنوات تحت الأرض كلّها؛ حتى لو حفر الإنسان أين ما حفر من أرضها وجد مجاري الماء تحته مشتبكة طبقات، يمنى ويسرى، شيئاً فوق شيء".

وإذا كان هناك إمكانية للرجال أن يلتقوا في السوق أو في المقهى نهاراً، فإن النساء محرومات من ذلك حتى منتصف القرن العشرين، لذا كان يطيب لهن الذهاب إلى الحمام، حيث يغسلن أطفالهن ويلتقينَ بصديقاتهن ويستعرضنَ البنات المناسبات للزواج، وتلتقي العروس بصديقاتها في الحمام قبل موعد العرس (الدمشقي، شمس الدين محمد، 1866).

ومع حلول النصف الثاني من القرن العشرين، وتطوّر الحياة الاقتصادية للمجتمع الدمشقي وامتلاك الأسر للحمامات في المنازل، تراجع الارتباط بعادة ارتياد الحمامات التي عُدَّت من أبرز ما تميّزت به دمشق في محاسنها، وفقدت الحمامات الكثير من وظائفها، لكن رغم ذلك لا تزال بعض الحمامات سليمةً موجودةً ولها شعبيتُها، كحمام الملك الظاهر وسامي ونور الدين الشهيد.

- **إشكالية البحث:**

يقف الباحث مندهشاً أمام ما كُتب عن الحمامات من جمال تفاصيلها وزخرفتها وتنوّع عاداتها، فما هي الطقوس التي ارتبطتْ بالحمامات؟، وهل كانتِ الحمامات من نوع واحد، وما أقسامُها؟، وكيف كانتْ تُدار؟، وما المناسبات التي تُحتّم على أبناء المجتمع ارتيادها؟، وكيف تتمّ عملية الاستحمام؟، وهل اقتصرتِ الحمامات على الرجال؟، أم كان للنساء حظٌّ وفيرٌ في ارتيادها؟، وما البعد الاجتماعيّ للحمامات؟

ستتم الإجابة عن هذه الإشكالية من خلال سياق البحث، والعودة إلى مصادر ودراسات حديثة حول هذا الموضوع

- **أهميّة البحث:**

تأتي أهمية الموضوع: كونه يمثِّل جزءاً مهمّاً من التراث المادي واللامادي للمجتمع الدمشقي، فكان من الواجب على أصحاب الاختصاص والباحثين المهتمين في تأصيل التراث السوري بشكل خاص؛ إعادة تسليط الضوء على هذا الجانب الاجتماعي في المجتمع الدمشقي؛ لأنَّ النظافةَ تُشكِّل المرتكز الرئيس في حياة الإنسان، وإن كان الحمام قديماً هو

المختص بهذا الجانب، فإنَّ المجتمع المحلي الدمشقي بدأ يفقد هذا الجانب كنشاطٍ اجتماعيٍ لصالح الحمام المنزلي، ومن هنا تأتي أهمية دراسة البعد الاجتماعي للحمامات من عادات وتقاليد وأعراف وسلوكيات، فالحمّامُ يجمع الناس في أفراحهم وأتراحهم.

- **أسباب اختيار البحث وأهدافه:**

من الضروريّ التأكيد على أنَّ هناك أسباباً كثيرةً دفعتِ الباحث لدراسة هذا الموضوع، منها اندثار كثيرٍ من الحمّامات في مدينة دمشق، وتحويل الباقي منها في غالب الأمر، إمّا لمكان للسكن أو مستودعٍ للبضائع التجارية أو لورشات عملٍ، واهتمام مديرية الآثار والمتاحف بما تبقى من هذه المشيدات والعمل على تنشيطها وإحيائها، حيثُ يهدف الموضوع إلى تسليط الضوء على العادات والتقاليد الاجتماعية التي ارتبطت بالحمّام.

- **منهج البحث:**

يُعدُّ المنهج المتّبع في دراسة البحث منهجاً تحليلياً توثيقياً نقدياً، يرتكز على الخلفية التاريخية لطبيعة الموضوع، وهذا يتطلّب العودة إلى مجموعة من المصادر والمراجع التي تناولتْ دراسة التراث الشعبيّ بموضوع الحمامات أي معرفة العادات والتقاليد التي رافقتْ الحمامات، والمجتمع المحلي الدمشقي، فهل كان للتطور الحضاري والانتعاش الاقتصادي، وتبدّل المفاهيم دورٌ وأثرٌ في تغيير هذه العادات، وبشكل خاص إذ ما علمنا أنَّ النمط الحديث لعمارة البيوت قد جعل هناك قفزةً نوعيةً في مسألة وجود حمّامات السوق كما كانت عليه سابقاً، حيثُ بدأت ملامح المجتمع تتغيّر بمفاهيمه وعاداته وتقاليده.

- **الدّراسات السّابقة:**

اعتمدتِ الدراسةُ على مجموعةٍ من الدراسات السابقة التي أفادتِ البحث في مواضعَ متعدّدةٍ، سواء أكانَ في التعريف بالموضوع لغة واصطلاحاً أو أقسام الحمام وأنواعه، أو في العادات والتقاليد التي ارتبطتْ بالموضوع، ومن أبرز تلك الدراسات ما أفرده كلٌّ من ممدوح الزركلي ونزيه الكواكبي اللذين عرّبا كتاب حمامات دمشق للمستشرقين ميشيل إيكوشار وكلود لوكور، حيث تمَّت الاستفادة من هذا الكتاب في البعد الاجتماعي للحمامات في مدينة دمشق.

وفي معظم حنايا البحث تمَّ الاعتماد على كتاب الحمّامات الدمشقية للمؤرخ التراثي الدمشقي الأستاذ منير كيال من حيث الاستعانة به للتعرُّف على أنواع الحمامات وأقسامها وكيفية العمل داخلها من قبل القائمين على إدارتها، إضافةً إلى الاعتماد على كتبٍ أخرى.

أولاً: تعرف الحمام لغة واصطلاحاً:

اتَّفقت المصادر اللغوية القديمة والحديثة حول كلمة الحمام واشتقاقها ومعناها، فالحمّام مُثقّلٌ معروفٌ، والتأنيث أغلب فيُقال هِيَ: "الحَمَّأُمُ" وجمعُها "حَمامَات" على القياس ويذكر فيقال: هو "الحَمَّامُ"، و"الحَمِيمُ" الماء الحار، و"اسْتَحَمَّ" الرجل اغتسل بالماء الحَمِيم ثم كثر حتى استعمل "الاستحمام" في كل ماء (الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، 1999).

و"الحَمَّامي" صاحب الحمام "حافظ الحمام"، و"المُسْتَحم" موضع الاستحمام (المُنجد في اللغة والأعلام،1997)، وأضاف القاسمي إن "الحمّامي" هو اسم لمعلم الحمام "ويسمى: المعلم"، سواء كان صاحبه وهو نادر أو مستأجره ((1)) (القاسمي، محمد سعيد، وجمال الدين، 1988).

وممّا تقدّم، هناك اتفاقٌ بالمعنى والمضمون حول تعريف الحمام بين أصحاب اللغة قديماً وحديثاً.

ثانياً: أنواع الحمامات:

(1) تم الاعتماد في كامل هذه الفقرة على مرجع إيكوشار، ميشيل ولوكور، كلود،1985.

احتفظتْ دمشق بهويّتها المعمارية والاجتماعيّة والاقتصاديّة، واشتهرتْ بكثرة مشيداتها وأوابدها الأثرية ووفرة مياهها؛ إذ لعب نهر بردى وفروعه دوراً في سقي قراها ومزارعها وخدمة حماماتها، التي أضحتْ قبلةً للباحثين والتجّار والزوّار، نتيجة تصميمها المتقن اللافت للنظر وخدمتها الممتازة، وبخس أجرة المغتسل وتقديم ما يلزمه من البشاكير والمناشف؛ ليَعكسَ ذلك مدى عناية الدمشقيين بالنظافة والاغتسال (العمري، شهاب الدين، 2002).

تستمدُّ الحمامات مياهها من الطوالع القريبة منها، فحمامُ نور الدين الشهيد الشهير يزوّد بالمياه من طالع البزورية، وحمام العفيف والمقدم والحاجب من نهر يزيد، أما حمام الورد والجوزة فمن نهر تورا (العش، محمد، 2006)، ولا شكَّ أنَّ النظام الباطني لتصريف المياه في دمشق يشير إلى الاهتمام بالصحة العامة من جهة، ومقدار رقي الدمشقيين العلمي في هذا الجانب من جهة أخرى، وتوفير المياه في دمشق شجّعَ أهلها على زيادة حماماتها، بل أحدث نوعاً من التنافس بين أصحابها، حيثُ حرص كل حمّامي على إبراز محاسن حمّامه وتقديم أفضل الخدمات لزبائنه، وقد وصف البدري حمام الربوة بقوله: "وبها حمّام ليس على وجه الأرض نظير لكثرة مائه ونظافته وله شبابيك تطلُّ على النهر" (البدري، أبو البقاء عبد الله بن محمد،1980)، ويمكن تمييز نوعين من الحمامات هي:

1- الحمامات العامّة

2- الحمامات الخاصّة

1- الحمامات العامّة:

استطاع المعماري والفنان الدمشقي أنْ يُبدعَ آياتٍ من الجمال المعماري والفني التي انتشرت في ربوع دمشق وأحيائها وأسواقها، هذه المشيدات هي الحمامات العامة، ولعلَّ من نافلة القول استذكار ما قاله الوليد بن عبد الملك[1] عن دمشق: "تفخرون على الناس بأربعِ خصال، تفخرون بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببتُ أنْ يكون مسجدكم الخامسة" (الصواف، حسن زكي، 2010).

تفتح الحماماتُ العامة أبوابَها لكلّ الناس، أي لكلّ فئات المجتمع صغيرِهم وكبيرِهم تاجرِهم وعالمِهم، الفقير منهم والغني، كانوا نساءً أم رجالاً، ولهذا عُرفت بالحمامات العامّة، حيثُ كانت الحمامات في دمشق وجهاً من وجوهها الفنية، ومظهراً من مظاهرها الصحيّة وملتقى للحياة الاجتماعية، فلمْ يشأ أهل دمشقَ أن يكونْ الحمام منتجعاً لأهل دمشق فحسب، بل مكانٌ مريحٌ يستمتعون بجماله الفني، كما يستمتعون بحرارة مائه ودفئه، ومكان نزهات واجتماعات يتبادل فيها المواطنون مختلف الأحاديث (كيال، منير،1986)، لذلك زيّنوه فأبدعوا بزينته وتزيينه، حتى أصبحتْ بعضُ الحمامات الدمشقية آيةً فنيةً معماريةً رائعةً ومميّزةً، تمتاز بها دمشق على مرّ الأيام، وتعدّ بقايا الحمامات التي تعود إلى العهود الأيوبية والمملوكية والعثمانية من روائع فن العمارة (مراد، جوسلين،2013).

ولا تتبع الحمامات تصميماً هندسياً موحّداً في مظهرها الخارجي، فأجزاءُ الحمام متنوّعة التصميم المعماري، وتتلاءم مع شروط الأرض التي بنيت عليها، غير أن ترتيب أقسام الحمام وفق وظيفة كل منها يخضع لقواعد ثابتة، ومن الممكن أن يكون ترتيب الغرف مُتتابعاً مع امتداد طولاني أو متجاور في خطين متوازيين.

وتفتقد دمشق لوجود حمامات مزدوجة للنساء والرجال في مبنى واحد منقسم إلى قسمين منفصلين كتلك المعروفة في تركيا، وهناك حماماتٌ كثيرة يستطيع المارّ التعرف عليها من خلال نوافذها في الطابق الأرضي فهي مطلة على الشارع ويستطيع المار أن يرى قسم الراحة البراني من خلالها (الصواف، حسن زكي، ص2010).

([1])منهم: آل التيناوي أصحاب حمام الناصري في المرجة، وآل قطان: أداروا حمام البكري، آل كبب: أصحاب حمام الملك الظاهر، آل النوري: أصحاب حمام الملكة سابقاً، آل الموصلي: أصحاب حمام الجوزة، آل الكوزلي: أصحاب حمام السكاكري، آل الملك: في حمام نور الدين الشهيد، آل الشيرازي: في حمام الشيخ رسلان، وغيرهم (العش، محمد،2006).

1-1 مكوّنات الحمامات العامة:

تتكوّن الحمّامات بصفة عامة من عدد من الغرف، لكلِّ واحدةٍ منها وظيفة خاصة، وامتازت الحمامات بأرضيتها المكسوة بالرخام والأحواض الواسعة التي يجري الماء الساخن والبارد فيها (السامرائي، فراس سليم حياوي، ص2004)، ولا يظهر الحمام بمجمله إلا من سطوح المنازل المجاورة، فهو مؤلّفٌ من قبة كبيرة تعلوها فقاعة بلورية وإلى جانبها مدخنة، وهذه القبة تهيمن على قباب صغيرة يخترقها النور بواسطة قماري، وللحمام بابٌ بسيطٌ ضيق خالٍ من الزينات أو الكتابات التي تهدي المارة إليه، لكن المناشف على الحبال تعمل عمل اللافتة، وللحمام مدخلٌ ثانويٌّ يوصل إلى مكان الخدمات ويقبع الحمام وسط حارة بين جدران مشتركة تحافظ على حرارته ويطلُّ على الطريق بأصغر واجهة، ويقسم الحمام العام إلى:

صالة خلع الملابس: "المشلح" فقط، لا يأتيها البخار فبنيتُها المعمارية وأسلوب بنائها يختلفان عن باقي الصالات التي ينبغي أن يكون بناؤها قبل كل شيء يتجاوب مع الهدف الصريح في الحفاظ على الحرارة والبخار، وهذه الصالة تتميّز بوجود نوافذ ضمن القباب تؤمن الإنارة، باعتبار أن الباب يقع ضمن منحنى لا يكشف من في الداخل في حال فتحه، وهي صالة متصالبة الشكل مغطاة بقبة.

أمّا الجدران فمطليةٌ بمختلف الألوان، وبعض الصالات فيها محراب يبرز عن الجزء الأجرد من الحائط بزخارفَ شبه مرمرية، والدرج المؤدي للأسطح، إضافة إلى وجود مقاعدَ خشبيةٍ للاستراحة على مصاطبَ مرتفعة.

المراحيض: تؤلف مرحلة الانتقال بين صالة خلع الملابس والصالات المخصصة للاغتسال، والدخول إليها أصلاً بدون ملابس، يفرض عليها أن تكون بنفس البنية المعمارية لباقي أجزاء الحمام لحماية المستحمين من البرد، والممشى المنعرج له بابان الأول يؤدّي إلى صالة خلع الملابس، والثاني يؤدّي إلى الصالة الباردة البراني، وهو يؤمّن الاتصال بين هاتين الصالتين وبين المراحيض.

والمراحيض مؤلّفة من خلوتين أو ثلاث متلاصقة مفصولٌ بعضُها عن بعض بقواطع ترتفع بقدر قامة الإنسان، وعلى متناول اليد يوجد حوضٌ صغيرٌ يجري ماؤه بواسطة ميزاب ويستعمل للتطهر.

الصالة الباردة "وسطاني براني": تحلُّ محلّ صالة خلع الملابس المشلح من أجل المسنين والمرضى والأشخاص الذين يتأثرون بالبرد أيضاً خلال فصل الشتاء، ومن أجل ذلك سميت بمشلح الشتاء، وغالباً ما تحتوي على قسم مرتفع تُوضَع عليه مقاعدُ مماثلةٌ لمقاعد الليوان في صالة نزع الملابس "المشلح"، وفي وسطها بحرةٌ تزيينية لا يستعمل ماؤها إلا لغسل الأرض، وهنا يلف الزبون بمناشف جافة لدى عودته من الحمام، حيث يبقى لحظات معدودات ليتأقلم مع تبدل الحرارة.

الصالة الدافئة "وسطاني جواني" أو "وسطاني ثاني": تستعمل في الصيف كحمام مثل الصالة الحارة عندما تكون هذه الصالة مشغلة بتمامها، وتحتوي عدة صالات مُلحقة تسمى واحدتها مقصورة، وغالباً ما تستخدم إحداها كمستودع للكلس المطفي الذي يستعمل لنتف الشعر، وأخرى تُسمّى مقصورة الدوا تستخدم للنتف وفيها ينتف الزبون عانته ومن ثم يحلق المدلك له شعر صدره.

الصالة الحارة "جواني حار": مجهّزة بليوانين أو ثلاثة بصورة عامة وبمقصورة الصالة الدافئة، غير أن الحمامات السابقة في القدم لا تحتوي إلا على صالة متطاولة تنتهي من الجهتين بنصف دائرة، ومجهّزة بمقصورة واحدة، وهذه الصالة تتلقّى البخار مباشرةً من الحراق بواسطة فتحة واقعة مقابل باب الدخول، وهناك مصطبة مبنيةٌ في أقصى الصالة تستند إلى حائط الموقد تحت الفتحة الرئيسة للبخار، وفي هذا الموضع تكون للتعرّق، كما تُستخدم أيضاً للدخول إلى خزان الماء الساخن وإحدى المقاصير تسمى مقصورة المغطس، وتحتوي على بحرة، مساحةُ سطحها مترٌ مربعٌ واحدٌ وعمقُها متران، ويستطيع الإنسان أنْ يغطس بكامله فيها، وأمرت الحكومة بردم هذا المغطس بسبب كثرة حالات العدوى التي أثارها هذا الانغماس في ماء حار جداً. وتستمدّ المقصورة البخار مباشرة من الحرق بواسطة ثقب مستدير قدره 10 سم، أما أرض الصالة الحارة فتسخن أيضاً مباشرة من قسطل الدخان المار تحت أرضها.

مكان التسخين والخدمات: موضوعان في غرفة طويلة مسمطة البناء، مغطاة بقبة ذات ارتفاع متواضع "مترين تقريباً تحت القفل"، وهذا الارتفاع يمنع البخار من الانطلاق عمودياً والتبريد في حجم كبير من الهواء، حيثُ يمكن الدخول إلى الصالة الحارّة دون أن يضيعَ شيء من كثافته، وترتفع أرض الغرفة حتى ينساب الماء الساخن نحو الصالات المخصّصة للزبائن، وفي أرضها تمّ إيلاج جفنتين من النحاس يُسخن الماء فيهما، وهما بحجم غير متساوٍ موضوعتان الواحدة وراء الأخرى على محور الحمام، ولهما دور مختلف: فالجفنة الكبيرة موضوعة فوق الموقد بالضبط، وهي الأكثر بعداً عن الحمام، وفيها يسخن الماء الآتي من الخارج حتى الغليان، وهناك أنبوبٌ صغيرٌ يوصل الماء إلى الجفنة الكبيرة الثانية، حيثُ يبقى الماء بنفس درجة الحرارة بفضل تجهيز خاص للموقد، ثم يفيض الماء من كلّ جهة من جهات المقعد الواطئ المبني من الحجارة ويحمل القصعتين، وبعدها ينسفح الماء على كامل سطح المكان، إذ يرتفع إلى سماكة 40 سم، وبذلك نحصل على احتياطي مهم من الماء الحار، إضافة إلى سطح كبير للتبخر قادر على تشكيل البخار بسرعة.

وهكذا يتمّ تحقيق الشرطين الضروريين لتشغيل الحمام بصورة مرضية: ماء حار وبخار بكميات كبيرة.

الموقد: يقع في القبو، ويتألّف السخّان بصورة أساسية من أسطوانة مُفرغة من الآجر الناري موضوعة تحت الجفنة الكبرى، ويوجد في قسمها الأمامي فجوةٌ صغيرةٌ تسمح بإضرام النار، وفي الصباح يُملأ الموقد بالخشب وبقضبان القنب، ثمّ يُشعل وعندما تُضرم النار تغلق الفجوة بصورة مُحكمة بواسطة بلاطة تلصق بها بطينة لزجة.

وبدءاً من هذه اللحظة فإنَّ تغذية الموقد بالوقود تتمُّ بطريقة مختلفة تماماً، فهناك في القسم العلوي من الأسطوانة الآجرية، يتصل مجرى منحنٍ على صورة جذع الهرم، وينفتح على مستوى الأرض، وبواسطة هذا الجهاز المماثل لشاروق الكهف يتغذى الموقد طالما يعمل الحمام، وتُصب بصورة مستديمة بواسطة الفتحة العلوية للمجرى قبضات من الوقود "نشارة، روث الدواب، قش مفروم... إلخ" تصل إلى الموقد، حيثُ إنَّ أرض الموقد ذات ثقوب تتساقط منها فضلات المحروقات في وعاء مخصّص لجمع الرماد، يمكن تصريفها بواسطة فتحة صغيرة ومنها أيضاً تتم عملية التهوية اللازمة للشفط.

الخدمات: تقع مقابل الحراق حجيرةٌ مظلمة مخصصة لخدمة الموقد، وعلى الأرض يُكدّسُ الوقود، وهناك درج يؤدي إلى القبو الضيق الذي تمارس فيه عملية إضرام الموقد وتنظيفه، وفي سقف الحجيرة ثُقبتْ كوّة هي الفتحة الوحيدة التي تمكّن من جلب بعض النور عندما يكون باب الغرفة مغلقاً، في إحدى زواياها درجٌ إلى سطوح الحمام، حيث يجفّف الوقود بالشمس قبل أن يلقى به إلى حجيرة الخدمة، وعلى مقربة منها ينتشر طوال فصل الصحو الأثاث المتواضع لعائلة القروي المكلف بخدمة النار المؤلف من بعض الأغطية الفراشية ومن المهود، ومن قدر موضوعة على حجرين، وفي الشتاء يلوذ هؤلاء البائسون بغرفة الخدمة، حيث يجدون الملجأ والدفء، وفي الطرف الآخر من السطوح وعلى جبال أو أسلاك من الحديد تنشف الفوط، ويأتي المكيس أو المعلم لنشرها أو لجمعها، وفي الحمامات الفقيرة يعتبر تعريض الفوط للشمس التبييض الوحيد الذي تتلقاه[1].

لم تكن الحمامات في دمشق وباقي العالم الإسلامي معزولةً عن أي نظام إداري، بل على العكس إنَّ الحزم والضبط والمتابعة والقواعد سماتٌ تميّز بها القائمون على إدارة هذه الحمامات (السامرائي، فراس سليم حياوي، 2004).

وينبع ذلك من طبيعة وظيفة هذه المنشأة اجتماعياً وأخلاقياً ودينياً، وهي عناصر ثلاثة جعلت من يقومون على إدارة الحمامات، يتميَّزون بقدرتهم العالية على ضبط سير العمل داخل الحمامات، كون تلك المشيدات تخصّص أوقاتها تارة للرجال وتارة أخرى للنساء، وإذا كانت الضوابط الشرعية والأخلاقية هي في مقدمة أولويات من يقوم على إدارة هذه الأماكن، فإن الجانب المالي والاجتماعي لا يقلّ أهمية عمّا تمت الإشارة إليه آنفاً.

(٥) حمام البكري: لا يزال في حارة النحوي شرق القيمرية شيده البكري لرجل يقال له أبو المواهب في العهد العثماني سنة 1617م، الشهابي، 1999، 182.

ووُضعتْ للحمامات ضوابطُ وقواعدُ تضمن سلامة وراحة المرتادين إليها، ومن تلك الضوابط التي اشترطتْ على المزين في الحمام أن يستعمل الأمواس الجديدة المصنوعة من الفولاذ في الحلاقة، وإزالة الشعر من الجسد، وأن يكون المزين خفيفاً رشيقاً ولا يأكل ما يغير نكهته، كالبصل والثوم والكراث في يوم نوبته، لئلا يتضرر الناس برائحة فيه عند الحلاقة (الشيرزي، عبد الرحمن بن نصر،1946).

فمن هؤلاء الذين يقومون على ضبط وقوننة العمل داخل تلك المباني الصحية؟

أوقات استحمام الرجال: يعمل في الحمام عددٌ من العمال، يختلفون زيادة أو نقصاناً حسب كبر أو صغر الحمام من جهة، وحسب عدد واتّساع مقاصير الجواني والوسطاني من جهة أخرى، كما أن موقع الحمام ونوعية روّاده يلعبانِ دوراً مهماً في تحديد عدد العاملين.وللعاملين في الحمام عملٌ متميّز عن بعضهم بعضاً هم مسؤولون عنه، ويتسلسلون على طريقة مشيخة الكارات، فالعاملُ في الحمام أول ما يبدأ يعمل أجيراً ثم يصبح تابعاً "تبعاً"، ثم يترقّى حتى يصبح ريساً وناطوراً ثم معلّماً، وقد يتوارثون هذا العمل أباً عن جد إلَّا أن ذلك نادرٌ في أيامنا.

من جهة أخرى، كان عدد العمال كبيراً، إلّا أنَّه أصبح قليلاً في الوقت الحاضر لدرجة الندرة؛ إذ ليس المهمّ أنْ تجد من يقبل العمل في الحمام، وإنَّما أن تجدَ من يجيد أصول الصنعة وتقاليدها في التعامل مع الزبائن، وسبب ذلك فيما نعتقد تناقص عدد الحمامات التي تمارس عملها في دمشق لعزوف الناس عن ارتيادها بظهور بديل عنها في الدور الدمشقية المعاصرة، وبالتالي قلة المردود المادي "الأجر" لأولئك العاملين الذين يعتمدون على الإكراميات "الحلوان" التي يتقاضونها من رواد الحمام مقابل خدمتهم لهم وتأمين راحتهم خلال الاستحمام وبعده حتى المغادرة.

وكثير من الحمامات الحالية لا يديرها أصحابُها بل أشخاصٌ يستأجرونها، ومنهم من توارث المهنة، ومنهم الذي أصبح فجأة يدير حماماً، وهكذا قلّت أهمية الحرفة "المصلحة" ولم يعدْ لمشيخة الكار أهمية تُذكر، وأصبحتْ مرتبة رمزية يعترف لحاملها بالقدر والمحبة، وكان من أهم مهام شيخ الكار: الإشراف على تسليم الحمام وعدته ومزبلته، وملاحظة أسلوب العمل في استقبال الزبائن وخدمتهم وتأمين راحتهم، وبالتالي الحفاظ على سمعة الحرفة "الكار" وتخريج صناعتها وحلّ المشاكل بين أربابها والعاملين بها، وبين أولئك وروّاد الحمامات.

ويمكن ذكر تسلسل ومهام العاملين بالحمام في فترة الرجال على النحو التالي:

المعلم: صاحب الحمام أو مستأجره وممولّه، يعمل جميع العاملين في الحمام تحت إمرته لتأمين مصلحته التي هي مصلحة الحمام، وبالتالي مصلحتهم جميعاً، والعلاقة بين المعلم والعاملين في الحمام أساسها العون المتبادل والألفة والمحبة، وهو مسؤولٌ عن سلوكهم جميعاً وتصرفهم ونشاطاتهم المسلكية.

وإذا أخل أحد العاملون في الحمام بالآداب العامة والأصول المتبعة فإن المعلم يستغني عنه مهما جلّ عمله أو عظم، وقد يؤثر ذلك في انتماء المسيء إلى الحرفة.

وعلاقة المعلم بأمثاله من المعلمين في الحمامات الأخرى تقوم على الاحترام المتبادل والمحبة، وكثيراً ما كانوا يقومون بالنزهات "السيران" إلى مقاصف ومتنزهات دمشق الغربية معاً، ويجلس المعلم عادة على دكة "تخت" خاصة في البراني، بحيث يستطيع ملاحظة الداخلين والخارجين فيقوم بالترحيب بهم، آمراً الأجير أو الناطور بالمثول بين يدي الزبون وخدمته والإسراع في تلبية طلباته وتقديم أحسن (الفوط) وأجدّها.

كما يقوم المعلم باستلام دراهم وأمانات الزبون ويحفظها له في صندوق ويسلمها له بعد الاستحمام، ويتقاضى من الزبائن أجر الاستحمام "الوفاء".

الناطور: ينوب منابَ المعلم حال غيابه، فيستقبلُ الزبائن ويستلم الأمانات ويقبض أجر الاستحمام، كما أنَّه مسؤول عن نظافة الحمام ومظهره الخارجي، ويقوم بنشر فوطة أو منشفة على حبل عند باب الحمام الخارجي كإعلان "يافطة" أنَّ الحمام في هذه الفترة للرجال، ويقدم المشروب للزبائن خلال وبعد الانتهاء من الاستحمام، من مرطبات الليمون والبرتقال

والمياه الغازية "الكازوز"، إضافة إلى القهوة والشاي، وكان أجره من أرباح المشروب والإكراميات "الحلوان"، وتكون حسب الحمام ودرجته ونوعية روّاده.

ويستقبل الناطور الزبون بالترحاب ويساعده على خلع ملابسه، يبسط له فوطة يحجب "عورته" بها عن أعين الآخرين ريثما يتم خلع ثيابه، وفي تلك اللحظة يلفّ الناطور تلك الفوطة بخفّة نادرة على خصر الزبون وتعرف باسم "الماوية"، كما يضع على كتفي وظهر الزبون فوطةً أخرى تسمى "الظهرية"، ويدخل بالزبون إلى الوسطاني فيسلمه إلى الريس إذا كان يرغب الاستحمام بمساعدته "الريس"، وإلّا يتركه يدخل إلى الجواني للاستحمام بمفرده كغيره.ومن الأعمال المنوطة بالناطور غسل الفوط والمناشف ونشرها بعد استعمالها وعليه حفظ ملابس الزبائن في صرر "بقج" خاصة بكل منهم، واستقبال الزبون حال انتهائه من الاستحمام بالمناشف في الوسطاني، فيلفّ على خصر الزبون منشفةً وعلى رأسه ويدعه فترة يستريح في الوسطاني، ويقدّم له خلالها المشروب إذا أراد ويغيّر له المناشف أكثر من مرة، بعد ذلك يخرج به إلى البراني فيبدل له المناشف أيضاً مراراً حتى يجف جسمه، وفي حال كان الزبون من الميسورين "الأكابر" يلفّ الناطور على خصر الزبون منشفةً أخرى فوق "الماوية" تسمى "المقدم".

الريس: يتركز عمله في مقصورة خاصة به في الجواني، وقد تكون في الوسطاني في فصل الصيف، وتُسمّى مقصورة الصنعة، وينحصر عمله في تحميم وتكييس وتفريك وتليف الزبون إذا رغب في ذلك، يعمل الريس على حسابه بدون أجر، وينحصر دخله فيما يتقاضاه من الزبائن الذين يقوم بخدمتهم، ومن الأمور المُتعارَف عليها: أنَّ المعلم لا يأتي بريس جديد ما دام الريس قائماً على عمله باستمرار وتعاون تام مع المعلم ومع بقية العاملين بالحمام، ولم يكن المعلم يتفق مع الريس قبل أن يقوم باختباره ويكون الاختبار عملياً، حيث يحل المعلم مكان زبون ويطلب من الريس تحميمه وتكييسه وتليفه، ومن خلال ذلك يلحظ المعلم مدى تمكن الريس الجديد من أصول الصنعة، ومدى حشمته في تعامله من الزبون.

التبع: وعمله استقبال الزبائن فور دخولهم إلى الوسطاني، وتقديم من يرغب الاستحمام بمساعدة الريس إلى الريس، وهو يعمل تحت إشراف المعلم والناطور والريس، فهو أشبه بدولاب الحمام، ويطلق عليه اسم "حجر مقذاف" فهو يشطف البراني والوسطاني والجواني، وكان ينقل الماء البارد إلى الأجران ليعدل حرارة الماء فيها قبل أنْ تُمدّدَ التمديدات الخاصة بالمياه الباردة. كان أجره رمزياً؛ لأنَّه كان يحصل على الإكراميات من الزبائن لقاء خدمتهم، كما كان عليه أنْ يجهّزَ مقصورة "النورة" بالدواء "الكلس الزرنيخ" على حسابه لأن دخلها يعود إليه، كما يقوم بتحميم رأس الزبون وتليف ظهره وهو جالسٌ خلف جرن الاستحمام، وذلك بدون أنْ يسطّحه على الأرض؛ لأنَّ ذلك كان من اختصاص الريس، كما أنّه يحضر المناشف للزبون بعد انتهائه من الاستحمام، وينشف جسم الزبون قبل الذهاب إلى الوسطاني (العش، محمد، 2006).

أوقات استحمام النساء: في دور استحمام السيدات تبقى الوظائف نفسها للعاملات في الحمام إلى حدٍّ ما، ولكن ألقابهن تختلف، وهكذا كنا نجد:

المعلّمة: تأخذ مهام المعلم في فترة استحمام النساء، وقد تكون إحدى قريباته.. زوجه مثلاً، أو أنها تعمل لحسابه، وقلَّ أنْ تكونَ صاحبة الحمام، إلّا أنّها قد تكون مستأجرة "ضامنة" للفترة النسائية من رواد الحمام، وهي كالمعلم تشرف على الحمام وتديره، وتقوم بجميع مهام المعلم التي ذكرت، إضافةً إلى ذلك كان عليها مهمة عسيرة شاقة أحياناً، ألا وهي حل النزاعات والإشكالات التي كثيراً ما كانت تحدث في فترة استحمام السيدات لسبب ولغير سبب.

الناطورة: مهمتها كالناطور في فترة استحمام الرجال، من حيث استقبال الزبونات في البراني عند دخولهن إلى الحمام ببشاشة وترحاب وخفّة، فتأخذ منهن بقج الملابس وتلاحظها من العبث خلال فترة استحمام كل جماعة، وبعد الاستحمام تنادي عليها البلانة لإحضار مناشف كل أسرة جماعة.

الأسطة: مثل الريس، تقوم بالتكييس "التفريك" والتليف، وتأخذ إكراميةً من كلِّ زبونة، ولها كرسيٌّ خاص بها تجلس عليه وراء زبوناتها أثناء تحميمهن، وهي غير ملزمة بإحضار الصابون والليفة والطاسة؛ لأنَّ السيدات يجلبن معهن ذلك، فضلاً

عن مناشفهن وفوطهن، كما أنه لا تستحمّ عندها إلّا الميسورات وزوجات "الذوات" ويتركز عملها وينشط في مناسبات الأفراح كالأعراس وحمام الفسخ والأربعين والعمرة والحج، حيث تجود الأكف بالمال والطعام والهدايا.

البلانة: وعملها يماثل عمل التبع في فترة استحمام الرجال من حيث استقبال الزبونات، وهي كالتبع أيضاً بين يدي المعلمة والأسطة والناطورة. وهي من تحشو الحناء للمسنات وتدهن المولدة "النفساء بالشداد" المؤلَّف من الزنجبيل والقرفة والدبس ولسان العصفورة والآس والزيت والبيض، بعد أن تجلسها على بلاط ممر بيت النار، كما كانت تحضر الماء البارد إلى الأجران مقابل أجر رمزي من كل زبونة، ويكاد دخلها يعتمد على دهن الشداد وحشو الحناء الذي كان يختلف باختلاف الأسرة ووضعها الاجتماعي والمادي في الحي.

ويمكن أن نعدَّ العاملين في تهيئة الوقود من زبال ووقاد من عمَّال الحمام في فترة من الزمن، فقد كان الزبّال والوقّاد، بكل حمام من العناصر الضرورية لسير عمل الحمام، يوم كان الوقود يعتمد على روث الحيوان والقمامة والمواد الأخرى القابلة للاشتعال.

الزبّال: كان يقوم بجمع القمامة في أماكن تجمعها "المقالب"، وروث الحيوان من الاصطبلات، ويأخذها إلى المزبلة الخاصة بالحمام فينشرها بالشمس ويقلبها بعد أيام ويخلطها ثم يراكمها على بعضها لنقلها ثانية إلى قميم الحمام؛ لاستخدامها كوقود لتسخين المياه (قدورة، غصون عبد الرزاق، 2018– 2019).

ووصف القاسمي الزبَّال في قاموس الصناعات الشامية بأنَّه الذي يشتري الزبل من خانات الدواب، ويضعه على دابة بوعاء كبير يسمى "شليفاً"، ويملؤه حتى يصير كالقبة على ظهر الدابة، ولأهل هذه الحرفة مزيدُ الاعتناء في وضع الزبل على الدابة، فيفرزون حول الشليف من الداخل قضباناً من عروق الذّرة اليابسة وغيرها، ويمشي خلفها متبختراً مُعجباً بنفسه، والمحترفون بهذه الحرفة هم أهل القلمون خاصة، كالمعضمية والرحيبة وعين التينة وما جاورها من القرى.

وقد تطوَّر الأمر فيما بعد فاستُعيضَ عن الشليف بالطنبر، يقدِّمه المعلم مع الدابة التي تجره (القاسمي، محمد سعيد وجمال الدين، 1988).

القميمي: هو من يقوم بوضع الوقود تحت حلل الماء لتسخين الماء اللازم للاستحمام، وكان الزبال يقوم بهذا العمل، ويساعده في ذلك أفراد أسرته.

وكان الوقّاد ينام وأفراد أسرته في القميم، أما الدابة التي تجر الطنبر فكان لها مكانٌ في جانب من القميم، ويستفيد القميمي من أجرة سلق قدور الفول التي يصل عددها إلى ثلاثين قدراً أحياناً، حيث تنبه أصحاب الحمامات إلى أهمية دخل قدور الفول على القميمي، فأصبح يشترط على القميمي أن يختار بين أجرة سلق الفول وأجرته من المعلم، فيما كان المعلم يستفيد من ثمن الرماد الذي يباع في ذلك الحين بعد خلطه مع الكلس، وقد يخلط ذلك الرماد مع الكلس وقشر القنب ليستعملَ في طلاء الأسطح والجدران المعرضة للأنواء (زريقة)، وأثمانه في بعض الأحيان كانت تغطّي نفقات الحمام.

الأدوات المستخدمة بالحمام: لا بدَّ من وجود بعض الأدوات في الحمام لمواصلة مسيرة العمل بالحمام، وهذه الأدوات كان الزبون يتّصل بها بشكل مباشر داخل الحمام لإتمام عملية الاستحمام.

الصابون: من أهم الأدوات المستخدمة في الاستحمام واستخدامه على مراحل لتنظيف الجسم من الأوساخ والدهون أكثر من مرة، ومن يحترف هذه المهنة كان يعرف باسم الصابوني، فكان الصابون البلدي والجعفري والغار من أشهر أنواعه، واستخدم الفلاحون والفقراء نبات الإشنان من أجل تنهيم الشعر والبدن وجلي الأوساخ عن أجسادهم، وقد استدعى توفر الحمامات أن ازدهرت صناعة الصابون والعطور (عاشور، سعيد وآخرون،1996).

النورة: تعدّ من أهم الأدوات التي يكثر استخدامها في الحمامات، وهي مادة تستعمل لإزالة الشعر الزائد، وتتكون من الجير ونسبة قليلة لا تتعدّى الثمن من الوهج الأصفر (الزرنيخ) ويعجن هذا المركب بالماء، ويتمُّ وضعه على المكان المراد إزالة

الشعر منه، وكان استعمال مادة النورة من الأمور المشهورة بالحمام، ومن المهام التي يقوم بها التبع للزبون، ويتمّ ذلك في إحدى الخلوات الفرعية بالقسم الوسطاني وتُعرف بمقصورة النورة.

البيلون (الترابة الحلبية): عبارة عن حجر صلصالي نقي، يطلى بمعجونة الرأس والبدن فيمتصُّ المواد الدهنية ويزيل الحرارة، ويستخدم البيلون إما بحالته الطبيعية أو بإضافة مسحوق الورد، ويستخدم البيلون جنباً إلى جنب مع الصابون الحلبي، وتحتاجه النساء أكثر من الرجال، والبيلون إما أن يكون متوافراً بالحمام أو تحضره به النساء معهن.

اللكن: عبارة عن إناء صغير نحاسي شبه أسطوانيّ ويستخدم لعجن البيلون أو الصابون من أجل الليفة.

الدريرة: مسحوقٌ ناعمٌ له عطرٌ خاصٌّ تحشو به المرأة رأسها فيصبح لشعرها رائحةٌ عطريةٌ، ولا يوضع هذا المسحوق إلا على الشعر ولا يستخدم على البدن.

الحنة: مسحوق لصبغ الشعر والأيدي والأرجل وهي من اختصاصات البلانة داخل حمام النساء، وأكثر ما تكون شهرتها في ليلة الحنة التي تسبق زفاف العروس.

أكياس الحمام: تكون عادةً من الصوف الخشن، وتسمى أكياس التدليك (التفريك) وتستخدم في دعك وتدليك كلّ أجزاء الجسم من قبل الريس، وإلى جانب الأكياس الصوفية كان يتم استعمال الليف الأبيض.

البقجة: هذه الكلمة من أصل تركي بوغجة، وتعني صرّة الثياب وجمعها بقج، وترتبط البقجة في الغالب بالنساء الذاهبات للحمام؛ لأنّهن اعتدْنَ أخذ أغراضهن من الصابون وأدوات الزينة والثياب والفوط إلى الحمام، عكس الرجال الذين يعتمدون على بقج الحمام والأدوات المتوافرة فيه.

القبقاب: يعتبر من أهم الأدوات التي يرتبط وجودها بالحمامات العامة، وهو عبارة عن قطعة سميكة من الخشب يوجد في أعلاها قطعةٌ من الجلد يقوم الزبون باستبدال نعله به إذا ما هم بالدخول إلى الحمام، حتى لا ينقل الطين والتراب العالق بنعله للحمام؛ لأن القباقيب يتم تنظيفها دورياً، ولا يخرج بها الزبون للخارج، ويمتاز القبقاب بنعله المرتفع فهو يحمي القدم من الاختلاط بنجاسات الحمام، ويساعد على عدم الانزلاق.

وعملية تبديل النعال تتمّ في البرّاني، حيث توجد مجموعة فجوات أسفل مصاطب الراحة تستخدم في حفظها.

المحك (حجر الحمام): قطعة من الحجر تُستخدم في تدليك وحكّ بطن القدم وإزالة الجلد الميت من منطقة الكعبين.

الفوط والمآزر: لا بدَّ لكل حمام من أن يحتوي على عدد كبير من الفوط والمآزر لتكفي حاجة زبائن الحمام، ويتوقف عددها على حجم الحمام وعدد زبائنه، فأثناء خلع الزبون لملابسه يقوم الناطور بوضع فوطة على وسطه لتستر عورته تعرف بـ"المحزم"، وتظل هذه الفوطة على وسط الزبون طوال فترة استحمامه، لا يخلعها حتى أثناء قيام الريس بتدليكه، وعلاوةً على المحزم كان الزبون يطلب من الناطور وضع فوطة على رأسه، وأخرى على كتفيه وظهره، وذلك يكون فقط بناء على طلب الزبون، وموضع الفوط والمآزر يكون في براني الحمام، حيث المكان الذي يخلع فيه الزبون ملابسه وتكون هذه الفوط في عهدة الناطور، وهو مسؤول عن نظافتها ونشرها وتنظيفها داخل الحمام.

المباخر: من الأشياء المحمودة التي تقدم في الحمام، فمن صفات الحمام الجيّد أنْ تكثرَ فيه البخور والروائح الطيبة لترتاح به النفس، وكان المعلم يحرص على توافر المباخر في كلِّ أقسام الحمام.

أدوات نقل المياه: تتمثَّل بالطاسة والسطل، والطاسة عبارة عن إناء نحاسي مختلف الأحجام يستخدمه الزبون نفسه في نقل المياه من الجرن لصبها أعلى رأسه.

أمَّا السطل فيُستخدم من جانب التبع في شطف أجزاء الحمام من الداخل أو في نقل المياه الباردة من الخزّان إلى أحد الأجران إذا أراد أحد المستحمين تعديل درجة حرارة المياه، وخاصة إذا كانت شبكة المياه الداخلية للحمام تقتصر على المياه الساخنة فقط.

الأمشاط والمرايا: من الأدوات التي ينبغي توافرها في الحمام، وعادة تتجنَّب النساء استخدام الموجودة بالحمام، ويعتمدن على اقتناء هذه الأدوات في البقج المخصصة لهن.

الفرش والوسائد: تُستخدم الفرش والوسائد في القسم البراني من الحمام لراحة الزبائن بعد الانتهاء من استحمامهم، وكذلك في تزيين المقصورات الموجودة بهذا القسم من الحمام (قدورة، غصون عبد الرزاق، 2019/2018) وتوارث العمل في الحمامات الدمشقيّة أفرادٌ من أسر دمشقية، حيث كان الوالد يعلّم ابنه الحرفة[1]

2) **الحمامات الخاصّة:**

النوع الخاص من الحمامات، يمكن الإشارة إليه من خلال وجوده ضمن قصور الأمراء والولاة والمتنفذين والأثرياء، غير أن بعضهم كان يقوم بعملية إيجار الحمام لفترة من الزمن إن كان سلطاناً أو أميراً أو غنياً، وما ذكره إيكوشار ولوكور يدلّ على ذلك "... كان لبعض الحمامات جمهورها الخاص، ففيما مضى من الزمان وحتى في السني الأولى من القرن العشرين كان الأثرياء يستأجرون من الحمام مقصورة ليوم كامل أو عدة ساعات من بعد الظهر أو المساء، وكانوا يؤمونها مع عائلاتهم أو مع أصدقائهم المدعوين خصيصاً للاستحمام، وقد اختفتْ هذه العادة، فحمام البخار الصغير في البيت، وفي بعض الأحيان المرحاض الأوروبي مع المشن "الدوش" والمغطس أبعدوا نهائياً عن حمام السوق الزبائن البورجوازيين"، وكذلك "حمامات اليهود والنصارى الذين كانوا يرتادون حمامي المسك والبكري[2] الذي يدار حتى السنوات الأخيرة من قبل شخص مسيحي، لا يكاد يستقبل إلا المسيحيين وحدهم، غير أنَّه لا توجد نصوصٌ دينيّة تنظّم في أيامنا هذه التردد على الحمامات؛ فالمسيحيون والمسلمون واليهود يدخلون جميع الحمامات، كما يدخلونَ جميع مقاهي المدينة" (إيكوشار، ميشيل، لوكور، كلود، 1985).ولا تختلف حماماتُ الدور الخاصة في جوهرها ووظيفتها وأقسامها عن حمامات السوق العامة في الأحياء، إلّا أنّ العناية فيها أكثر والنظافة أوفر والشروط الصحية أكثر ملاءمة، ويمكن القول إنَّها صورة مصغَّرة عن حمامات السوق العامة من حيث عدد المقاصير والأجران، واتّساع الأقسام من براني ووسطاني وجواني، وهذا طبيعي؛ لأنَّها خاصة بعائلة واحدة، ويمكن أن نعدَّ حمام آل الخطيب في حي القميرية أنموذجاً عنها.

فالبراني: يحتلّ جانباً من المطبخ، حيث الموقد الذي يساعد على تسخين ماء الحلة والتحكم بحرارة المياه كالتنور في قميم حمام السوق، وفي هذا البراني بحرةٌ تتموّن بالمياه من "عِدّان" الدار من مياه المدينة الموزّعة بواسطة "الطوالع" من الأنهار، وفي هذه البحرة مصرف "هارب" يوصل الماء إلى الحلة التي بدورها توزّع الماء بأقنية خاصّة إلى المغطس والأجران.

أمَّا الوسطاني فيمثّل ردهةً في جانب منها بيت الراحة "دورة المياه" وعلى أطرافها المصاطب كالحمامات العامة تماماً وفيه تبدأ الحرارة.

الجواني: يشمل إيواناً صغيراً يتّصل بالموقد الموجود في البراني، وتتفرّع عن ذلك الإيوان مقصورةٌ صغيرةٌ يتصدّرها جرن خاص لكبير العائلة، كما يوجد مغطسٌ لإسقاط الجنابة قبل الاستحمام، وفي ذلك المغطس تتوافر الشروط الشرعية من حيث العمق وإفاضة الماء عند الغطس، بحيث تفيض المياه إلى مصرف خاص، وفي الوقت نفسه تتجدّد، وفي المقصورة المذكورة أيضاً طاقةٌ على غرار الطاقة التي فوق مصطبة الحرارة في الحمامات العامة تؤدّي إلى المطبخ "البراني"، حيث يمكن طلب تعديل حرارة المياه أو زيادتها وتحت الطاقة المذكورة مصطبة الحرارة (كيال، منير، 1986).

[1] أستاذ مساعد في قسم الارشاد النفسي، كلية التربية، جامعة اللاذقية

[2] طالبة دراسات عليا (دكتوراه)، قسم الإرشاد النفسي، كلية التربية، جامعة اللاذقية،

ثالثاً: مناسبات ارتياد الحمامات:

إنَّ الزيارة الأسبوعية للحمام تُعدُّ جزءاً من تقليد عريق يتصل بمنافع العناية بالجسم والاسترخاء، وكما في جميع البلدان فقد جرتِ العادة في المجتمع الدمشقي أنْ يكون الذهاب إلى الحمام في وقت مبكّر جداً، باعتبار أن الهدف المنشود لم يكن مجرَّد الاستحمام بأسرع وقت كما لو أنَّ الأمر يتم إلى غرفة حمام المنزل، إنَّما الغرض كان يتمثّل في قضاء نصف يوم على الأقل لإعطاء الجسم كلّ ما يستحقّه من عناية واهتمام، وكذلك في الاسترخاء بين الماء والحرارة والاعتناء بالبشرة (كريم، فضيلة، 2007).

فضلاً عمَّا سبق فقد كانت للحمام مشاركةٌ فعّالةٌ في عدد من الاحتفالات الاجتماعيّة، أبرزها حفلات الزواج والختان.

1- الختان:

كان الطفل يخرج مع أهله في موكب محمول على فرس مرتدياً ملابسَ جديدةً، ويسير قاصداً الحمام، حيث يقوم المزين أو الجرائحي بعملية الختان.

ولا بدَّ من الإشارة إلى التعاون القائم بين المؤسسة القضائية في المحكمة الشرعية وبين الحمام للفصل في بعض القضايا المتعلقة بالنساء، حيث كانتْ تتمّ الاستعانة بمعلمات الحمام لتحقيق دعاوى الاغتصاب، فتقوم معلمة الحمام ومعها بعض النسوة العاملات في الحمام بالكشف على البنت التي أُدعي اغتصابها ويقرّرن حدوث الاغتصاب من عدمه (كريم، فضيلة، 2007).

2- الزواج:

جرتِ العادة أنْ يذهبَ العروسان إلى الحمام في موكب كبير يعرف باسم "زفة الحمام"، ويبدو أنَّ هذا الإجراء كان عادةً قديمةً، واستمرّت في الإسلام، فكانتِ العروس تخرج مع صديقاتها وقريباتها مرتدية أفخر الثياب ويتقدمهن جميعاً فرقةٌ من الموسيقيين والراقصات، وتظلّ العروس طوالَ اليوم داخل الحمام، حيث تتلقاها البلانات ويقمنَ بعمليات التجميل كافة، ثم تعود إلى بيت أبيها في موكب بهيج، وكان الحمام ميداناً مؤهلاً لمشاهدة العروس والتأكّد من جمالها وصحّتها (السامرائي، فراس سليم حياوي، 2004).

ومن بين مرافقات العروس "الماشطة" وهي امرأة تُلازم العروس لخدمتها والاعتناء بها ابتداءً من الأسبوع الذي يسبق حفلة العرس، وكانت العروس المدللة تحظى بحضور والدها لمرافقتها في عودتها إلى البيت (كريم، فضيلة، 2007).

أمّا العريس فكان عليه الذهاب إلى الحمام في موكب كبير مع أصدقائه بعد أن يكون قد استأجر خلوةً له في الحمام على حسابه، فيقوم المزين بحلاقة شعر رأسه وتهذيب لحيته ويعطيه الحلوان، ثم تجرى عمليات التدليك والتكييس والاستحمام (عبد الحفيظ، محمد علي، 2007)، ويستعدّ بعد خروجه من الحمام لاستقبال طائفة كبرى من رجال الحي إلى طعام الغداء بعد أن يسبقَ ذلك دعوتهم بدون بطاقات، فإذا حضرَ هؤلاء أكلُوا وشربوا وقام فيهم والد العريس يدعوهم إلى الاشتراك بالعراضة بعد عشاء ليلة العرس مصطحبينَ معهم فوانيسهم، فيذهب هؤلاء ليستعدّوا إلى تلك المهمة، ومنهم من يستعد لإجراء تمارين على ألعاب النار وألعاب الحكم، وألعاب السيف والترس، وغيرها من الألعاب الأخرى (نعيسة، يوسف، 1986).

3- طقوس النساء في الحمام:

تفتح الحمامات أبوابها للنساء بعد الظهر بدءاً من آذان الظهر حتى آذان العشاء، وتؤمها النساء بكثرةٍ وبصورةِ جماعات ويبقين فيها طوال الأمسيات، ولا يقصدن الحمام لمجرّد رغبة بسيطة في النظافة أو الصحة، إذ ليس لهن مجالٌ للتسلية كالمقهى بالنسبة للرجال أو كصالات الاستقبال بالنسبة للبورجوازيين، فالحمام بقي بالنسبة إليهن مكاناً للراحة والمتعة.

وتجلب النساء إلى الحمام أولادهن إناثاً كانوا أم ذكوراً، ويستطيع الذكور أن يرافقوا أمهاتهم إلى أن يبلغوا من العمر سبع سنين فإن تجاوزوه وجب عليهم دخول الحمام أثناء الساعات المخصصة للرجال، وتعنى النساء بحمل مناشفهن إلى الحمام

مع الصابون والطاسة، وكذلك جلب بعض الأطعمة الباردة، يتقاسمنها بعد ارتداء ثيابهن مع موظفات الحمام، وجَلبُ الطعام يسمح لهن إضافة إلى إعفائهن من دفع البخشيش، بتقليص نفقات هذه الساعات من التسلية وزيادة التلذذ بها أيضاً.

والطعام الذي تعدّه النساء لهذه المناسبة هو (المجدرة والكشك والخبيزة ومعقود المندرين أو البرتقال الحلو) ولا يحملْنَ إلى الحمام لا الدهنيات ولا اللحم ولا أي فاكهة تتوافر بكثرة صيفاً في المدينة، بل يحملن غذاءً مختاراً يحضّر بسرعة أو يكون ذا طعم منعش (إيكوشار، ميشيل ولوكور، كلود، 1985).

وقبل الشروع في طقوس الحمام، تقوم الزبونات بإيداعِ أموالهن وحليهن لدى السيدة القائمة على الحراسة، خوفاً عليها من السرقة، وقبل أن تمرَّ الواحدة منهن إلى القاعة الباردة "البيت البارد" كانت تلف جسدها بـ "فوطة" حتى الركبتين وهي مخططة ذات ألوان دافئة كانت تحاك قبل اختراع الخيط الصناعي من خيوط الحرير.

كانتْ عملية التجميل تبدأ بشطف الجسم شطفاً خفيفاً بالماء البارد، تليها عمليةُ التدليك، وكان المرهم الطبيعي المصنوع من الصلصال المبلل يبسط على بشرة الوجه والجسم بكامله لبضع دقائق، وكان من عادة النساء المتزوجات في المجتمعات الراقية القيام بإزالة الزغب الذي يغطي بعض الأجزاء من الجسم، بواسطة خليط يحضر من الجير الحي وحمض الزرنيخ وكان الشعر يتغذى بالحناء التي توضع في شكل قناع لمدة تفوق نصف الساعة، وغالباً ما كانتِ النساء المسنات يلجأن إلى تخضيب الأظافر وراحة الأيدي وباطن القدمين بالحناء لعلاج الآلام المختلفة، وبعد إزالة الحناء بالماء، كان الشعر يُغسَل بالصابون المصنوع في البيت، ثم يشطف بالماء الممزوج بالخل، أملاً في إضفاء بعض اللمعان عليه وتخليصه من الكلس الموجود في الماء، وقبل مغادرة الحمام كانت النساء يتعطّرن بالروائح المصنوعة من الورد أو الياسمين أو المسك (كريم، فضيلة، 2007).

وكان لجرن الشيخ أهمية في فترات استحمام السيدات اللواتي كُن يتباركنَ فيه ويحجزنه سلفاً ويفرضن الحماية عليه ويدفعن من أجل الجلوس حوله للاستحمام الإكراميات، وكُن يقدمن له نذور الزيت والشمع، ولا تزال بقايا من القنديل والشمع ماثلة تشهد على ذلك (كيال، منير، 1986).

لقد كان الحمّام في نظر جميع النساء مُرادفاً للقاء وتبادل الأخبار، ووحدها الملابس كانت تكشف عن انتماء هذه أو تلك ممن يدخلون إلى الحرم، بحيث لم تكن الواحدة منهن تسعى إلى إظهار ثروتها المادية، وكانت الخادمات اللواتي يصحبن سيداتهن يحضرن أنفسهن للمناسبة بنفس الابتهاج والغبطة، ففي الحمام لا فرقَ بين الفقير والغني، لا حدودَ ولا فوارقَ، الجميع يشتركون في نفس التجربة الاجتماعية.

وفضلاً عن الاسترخاء والنظافة، هناك مُتعٌ أخرى تشترك فيها الكثير من الزبونات المداومات على الحمام، ومنها الفضول والرغبة في التجسس على الأخريات، أو الالتقاء بصديقة.

والنساء كالرجال أصلاً، يرتدن إجبارياً الحمام قبل زواجهن، ومن المعتاد أن يذهبْن إليه بعد الحيض وبعد أربعين يوماً من ولادتهن، وبهذه المناسبة يخضعن إلى جلسة تعرق شديدة، حيث تراعي الدمشقيات من كل دين هذه العادات، كما تحرص الأمهات على عدم ترك أطفالهن طويلاً داخل الغرفة الساخنة، بحيث تُعطى لهم الأولوية في الغسل حتى لا يطالهم الملل، ثم تتمّ مرافقتهم إلى قاعة الاستقبال، حيث يجعلهم الإحساس بالاسترخاء يخلدون إلى النوم المريح، ولهذا الغرض تتفنن الأمهات في وضع أغطية وردية فوق الأفرشة (كريم، فضيلة، 2007).

وبصورةٍ عامةٍ تقضي النساء وقتاً أطول من وقت الرجال في الحمام، وهذه الساعات الطوال لا تمثّل بالنسبة إليهن إلا نفقةً يسيرةً، وقد يُفاجَأ المرء عندما يتحقّق من تفاهة تسعيرة الدخول إلى الحمامات التي كانت تتراوح تبعاً لأهمية الحمام وسمعته بين "٣ و١٠" قروش سورية، ويتردّد المستثمرون في رفع هذه الأسعار التي تحقّق لهم على الأقل الزبائن الشعبيين، وبالمقابل فإنَّ النفقاتِ التي يواجهونها لتشغيل حماماتهم قد ارتفعت مع الارتفاع العام للأسعار، وهذه النفقات تتوزّع على بدل الإيجار والضرائب والصيانة العامة للحمامات واستئجار الحمامات (إيكوشار، ميشيل ولوكور، كلود، 1985).

وجرتِ العادة عند النسوة وقت ارتيادهن الحمامات فيما مضى بألّا يبرحنَ الحمام إلّا عندما يحين موعد الإغلاق، وتضطر المشرفة إلى تنبيههن بضرورة الانصراف قبل قدوم الرجال، لكن ومنذ أكثر من جيل تغيّرت الأوضاع وتقلّص اهتمام النساء بالحمام لانشغالهن بالعمل خارج البيت، ما قلّل من إقبالهن عليه (كريم، فضيلة، 2007).

لقد كانتِ الحمامات بحق سمةً من السمات المميزة لمدينة دمشق ومجالَ فخر لأبنائها، فالحماماتُ إضافة إلى كونها أهم المنشآت المعمارية والإسلامية، هي حاجة صحيّة ونفسيّة وُجدت منذ وعى الإنسان وجوده على الأرض، والذي يشهد على ذلك الأحواض المحفورة في الصخور "خزانات الماء" لاستعمالات متعددة، وهي تعود إلى عصور موغلة في القدم؛ لذلك لا بدَّ من الحفاظ عليها، وعلى هذا الإرث الاجتماعي المهم والتمسك به، ودعم هذه المنشآت من قبل الدولة لما لها علاقة وثيقة بين التراث وعراقة الماضي المجيد.

وتلعبُ الحمامات دوراً أساسياً في ظلِّ فقدان التواصل بين الأسرة، وجمع المحبة والألفة بين الناس فيتمّ بها الإعلان عن زواج أو ولادة أو مناسبة معيّنة فيباركون لبعضهم البعض (الصواف، حسن زكي، 2010)، وكان الرجال يتخذونها فرصةً لمناقشة الأحداث وعقد الصفقات ودراسة أمور السياسة، وكان معظمهم يدخلون الحمام منهكين يجرون أجسادهم من ثقل الهموم والمتاعب، فيخرجون منه وهم ينعمون بالراحة المعنوية والجسدية.

وفي عشيات العيد، وعشيات فجر الجمعة يؤم الرجال الحمام بكثرة قبل ذهابهم إلى الصلاة، وفي الشتاء يتزوّد المتشرد بحرارته، وفي كل الفصول يؤمه المرضى للعناية بأنفسهم فيه، فالخصائصُ العلاجيةُ لا ريبَ فيها وتعزى إلى التعرّق والتدليك (كريم، فضيلة، 2007).

وهكذا يتضح جلياً الدور الكبير والمهم للحمام في حياة المجتمع الدمشقي، وأنه لم يكن فقط مكاناً للاستحمام والتطهر، وإنَّما ارتبط بنواحٍ اجتماعيةٍ واقتصاديةٍ وصحيةٍ عديدة في المجتمع الإسلامي.

رابعاً: المعتقدات الشعبيّة والحمامات في دمشق:

شكلت المعتقدات الشعبية جزءاً مهمّاً من بنية الفكر الاجتماعي في المجتمع الدمشقي، حيث كان تأثيرها واضحاً عند فئات متعدّدة لذلك المجتمع، ولعلَّ السبب في شيوع هذه المعتقدات يرجع إلى عوامل وظروف عدة من أبرزها وجود فئات تعتقد بالغيبيات السلبية والمعتقدات الخاطئة، لذلك تذكرُ لنا بعض الدراسات جانباً من هذه المعتقدات السلبية، وأبرز ما أشار إليه ووثّقه في التاريخ المعاصر الباحث منير كيال، عندما تحدث عن تناقل الأجيال الدمشقية والعاملين في الحمامات الدمشقية بعضاً من الأقاصيص والحوادث الخارقة التي تخرج عن نطاق العقل، ونورد فيما يلي بعضاً من تلك الأقاصيص على سبيل المثال لا الحصر:

العفاريت والكنافة: حدّث أحد الحماميين أن ناطور حمام الحدادين "الدرويشية" بينما كان ذات يوم نائماً في الحمام، طلع عليه عدة عفاريت صغار، حاولوا إيقاظه بنغزة بالدبابيس، فصحا ولكنَّه لم يتحرك وتظاهر بالنوم، أعادوا الكرة مراراً ولكن دون جدوى، ثم أخذوا يلعبون ويمرحون، حتى خطر لأحدهم أكل الكنافة، فوزع كبيرهم العمل على كل منهم ونغزه أحدهم بالدبوس، فنهض قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم على المكبتل وغير المكبتل فاختفوا جميعاً.

العفريت تحت الطاسة: القصة من حمام فتحي بالميدان السلطاني، وبمجملها أنَّ أحد المصوبنين كان يضرب الصابون بالطاسة ليليفَ زبوناً كان مستلقياً على وجهه يستريح من عناء التفريك، وإذا بالمعلم ينادي، فخرج تاركاً قطع الصابون في الطاسة الملأى بالماء، خلال ذلك أتى جرذ ضخم وحاول أخذ قطعة صابون من الطاسة، فانزلقتْ منه بالماء، حاول تلقفها فانقلبت عليه الطاسة وأصبح تحتها يركض ويجر الطاسة فوقه، ولما عاد المصوبن وجد الطاسة تركض من أول المقصورة إلى آخرها، فخرج مسرعاً إلى الزقاق منادياً مستغيثاً.

ومع تبدّل معطيات الحياة في المجتمع المعاصر، تلاشت تلك القناعات في زوايا النسيان، وهي في مجموعها نابعة عن الوحدة والانعزال التي قد تفرضها طبيعة العمل في الحمام في فترات الليل خاصة (كيال، منير،1986).

خامساً: أشهر حمامات دمشق:

لا تزال بعض حمامات دمشق تعمل حتى الوقت الحاضر، وتستقبل الزوار الراغبين بالاستحمام، وبعضها الآخر هُدم أو أغلق أو تحوّل إلى ورشات للصناعة، وأغلب حمامات دمشق يعود بناؤها للقرن السابع الهجري، ومن أشهر الحمامات:

1–حمام الورد: من حمامات القرن السادس الهجري، يقع في منطقة العقيبة مقابل باب جامع التوبة الشمالي، تحدث عنه ابن عساكر، فقال: إنّه يدعى حمام الراهب، ثم ابن طولون، وسمي بالعمري نسبة إلى الشيخ عمر الحموي صاحب الطريقة الصوفية والذي كانت زاويته قرب الحمام (العلبي، أكرم، 1989).

2– حمام نور الدين: بناه السلطان العادل نور الدين محمود الشهيد عام 567هـ/1171م وجعله وقفاً على مدرسته النورية الكبرى، وذكره الحافظ ابن عساكر، يقع في سوق البزورية، وقد عمرّه بعدما تخرّب حسن باشا الكتخدا عام 1020هـ/1612م، ثمّ تحول الحمام بعدها إلى مستودعات للتجارة، وأخيراً تم تجديده وترميمه، ويعد حالياً من خيرة حمّامات دمشق.

3– حمام النوفرة: من حمامات القرن السابع الهجري، ويعرف بحمام درب العجم الكبير، وقد كان من أفضل الحمامات، لكنَّه تحوّل أخيراً إلى محل لبيع الشرقيات.

4– حمام الحموي: ويعرف بحمام السلطان قايتباي ويقع في شارع الملك فيصل غربي مسجد السادات، وقد أُهمل وتحوّل إلى منشرة للأخشاب.

5– حمام الورد: يقع في سوق ساروجة إلى الشمال من جامع برسباي "الورد" بناه الأمير صارم الدين صاروجا أحد أمراء تنكز، ويعود للقرن السابع الهجري، ولا يزال يستقبل روّاده حتى تاريخه (العش، محمد، 2006).

خاتمة:

في الوقت الذي تسارعت فيه عجلة تطوّر الحياة، تبدّلتْ بعض المفاهيم والأعراف في أنماط الحياة لدى الأسر الدمشقية، حيثُ فقدت معظم الحمامات أهميّتها في الوقت الحاضر، نظراً لتوافر الحمامات في المنازل، فزبائنُ حمامات دمشق ليسوا اليوم الزبائن أنفسهم الذين كتب عنهم المؤرخون، وإنْ كانتْ بعض الحمامات استمدّت اسمها من زيارة زبون شهير مثل حمام السلطان الذي كان يؤمه السلطان سليم الأول، فإن حمامات اليوم لا تستطيع التغني باستقبال شخصية مهمة من شخصيات المدينة.

لكن بعض الناس ولا سيما زوّار دمشق لا يزالون يفضلون الاستحمام في تلك الحمامات، ويقوم الكثيرون بالحجز المسبق للاستحمام والساونا.

ولا بدّ من القول إن الحمامات وما يرافقها من عادات وتقاليد تبقى جزءاً من الهوية التراثيّة الدمشقيّة التي لا يمكن أن تُمحى من الذاكرة التاريخية للأجيال، ولهذا لزاماً على المهتمين أن يضعوا خطةً علمية للحفاظ على هذا التراث المادي وبقائه راسخاً في أذهان الأجيال، ويمكن القول: إن الدراسة خلصت إلى التوصيات التالية:

أولاً: العمل على إدراج تلك الأوابد المعمارية التراثيّة ضمن قوائم التراث العالمي.

ثانياً: قيام وزارة السياحة بالتعاون مع وزارة الثقافة، إضافة إلى أقسام التاريخ والآثار بالعمل على وضع دراسات تأصيليّة أثريّة تاريخيّة تراثيّة لهذه المشيدات.

ثالثاً: تسليط وسائل الإعلام في برامجها المتنوعة الضوء على الحمامات، لتبيان أهمية تلك المشيدات التراثية التي تنتشر في مناطق دمشق والمحافظات السورية الأخرى.

رابعاً: عمل وزارة السياحة على تنظيم رحلات سياحية ممنهجة مدروسة تروج لتلك المباني.

خامساً: العمل على وضع دراسات معمارية تساعد في الحفاظ على هذه المباني وبقائها من خلال أعمال الترميم والصيانة.

المصادر والمراجع

1. إيكوشار، ميشيل ولوكور، كلود: حمامات دمشق، تعريب ممدوح الزركلي ونزيه الكواكبي، ج1، دمشق، الإنشاء، 1985م.
2. البدري، أبى البقاء عبد الله: نزهة الأنام في محاسن الشام، بيروت، دار الرائد العربي، ط:1، 1980م.
3. البحرة، نصر الدين: دمشق في الأربعينات وعبر القرون، دمشق، دار البشائر، ط1، 2002م.
4. الدمشقي، شمس الدين محمد: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار العرب، 1866م.
5. السامرائي، فراس سليم حياوي: التقاليد والعادات الدمشقية خلال عهود السلجوقيين –الزنكيين – الأيوبيين، دمشق، الأوائل، ط1، 2004م.
6. سامي، عبد الرحمن: القول الحق في بيروت ودمشق، بيروت، دار الرائد العربي، 1981م.
7. ابن شداد، محمد بن علي: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى عبارة، دمشق، دمشق، وزارة الثقافة، 1991م.
8. الشهابي، قتيبة: معجم دمشق التاريخ، الجزء الأول، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1999م.
9. الشيرزي، عبد الرحمن بن نصر: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، 1946م.
10. الصواف، حسن زكي: دمشق الأسطورة والتاريخ، دمشق، دار المكتبي، ط:1، 2010م.
11. عبد الحفيظ، محمد علي: حمامات الاسكندرية في القرنين التاسع عشر والعشرين، 2007م.
12. عاشور، سعيد، وآخرون: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، القاهرة، دار المعرفة الجامعية، 1996م.
13. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن: مخطوطة تاريخ دمشق، مج:1، دمشق، دار الكتب الظاهرية، 2012م.
14. العش، محمد بسام: دمشق بين الحاضر والماضي، دمشق، مكتبات دمشق، ط1، 2006م.
15. العلبي، أكرم: خطط دمشق، دمشق، دار الطباع، 1989م.
16. العمري، شهاب الدين: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق ابراهيم صالح، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 2002م.
17. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي: المصباح المنير، معجم عربي عربي، اعتنى بها يوسف الشيخ محمد، بيروت، المكتبة العصرية، ط3، 1999م.
18. القاسمي، محمد سعيد وجمال الدين: قاموس الصناعات الشامية، تحقيق: ظافر القاسمي، دمشق، دار طلاس، ط1، 1988م.
19. قساطلي، نعمان: الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، بيروت، المطبعة الأميركانية، 1879م.
20. قدورة، غصون عبد الرزاق: الحمامات الشعبية الدمشقية (ذاكرة الشعوب وتراث الاجداد)، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم علم الاجتماع، ماجستير التأهيل والتخصص بالتراث الشعبي، رسالة ماجستير لم تنشر بأشراف الدكتور محمود شيخ الشباب، 2018–2019م.
21. كرد علي، محمد: دمشق مدينة السحر والشعر، القاهرة، مؤسسة هنداوي، 2013م.
22. كريم، فضيلة: موجز تاريخ الحمامات، ترجمة حضرية يوسفي، دار النشر، حلب، 2007م.
23. كيال، منير: الحمامات الدمشقية، دمشق، مطبعة ابن خلدون، ط:1، 1986م.

24. مراد، جوسلين سمير، دراسة الحالة الابداعية في تصميم حمامات مدينة دمشق القديمة، دمشق، جامعة دمشق، كلية الهندسة المعمارية، رسالة اعدت لنيل درجة الماجستير في قسم نظريات وتاريخ العمارة، إشراف الدكتورة المهندسة سلوى ميخائيل، العام الدراسي 2013، رسالة لم تنشر.
25. المُنجد في اللغة والاعلام، بيروت، دار المشرق، ط36، 1997م.
26. نعيسة، يوسف: مجتمع مدينة دمشق، ج1، دار طلاس، ط1، 1986م.